نازك الملائكة

نازك الملائكة
«وقضايا الشعر المعاصر»

في قصيدة من شعر نازك الملائكة عنوانها «ضوء القمر» تجرب فيها لأول مرة تشكيلة من خمس تفعيلات، كما وأنها قصيدة من شعر المقطوعة، لا من الشعر الحر.. الذي طغى على الشعر الحديث طغياناً جارفاً فيه كثير من الازدراء لشعر الشطرين، بحيث أصبح هذا الشعر الخليلي المنبوذ في حاجة لأن يسند.

وعندما كان شعر الشطرين طاغياً جارفاً، خرجت نازك الملائكة عام ١٩٤٩م بمقدمة «شظايا ورماد» داعية في عنف إلى وحدة الشعر الحر، الذي بدأت تنادي به منذ عام ١٩٤٧م، فلقي الرفض والإعراض في دوائر الخليليين ـ وعندما طغى الشعر الحر.. رفعت نازك صوتها.. في.. قضايا الشعر المعاصر، داعية إلى الاعتدال حتى قيل عنها بأنها قد تراجعت عن الشعر الحر.

وإنها الآن.. في دعوة جديدة، حريصة على أن تستبقي مكاناً مناسباً للشعر ذي الشطرين فإن فيه جمالاً، وغنى، وموسيقى، وهو قادر على تحمل الكثير من التجديد، لو عدنا إليه وتناولناه.. بعد أن اكتسبنا ملامح جديدة في شعرنا الحر، هذا فضلاً عن أنه ليس من الحكمة أن نقطع الصلة.. بتراثنا لنحل شكلاً جديداً، يمحوه محواً كاملاً.. وتقول نازك في ذلك:

«إنها تحب دائماً أن تتذكر، ويذكر غيرها.. أن الشعر الحر نهر صاف جميل، تدفق.. وتفرغ في أرضنا، ولكنه لا ينبغي لهذا النهر الجديد أن يطغى ويتجبر حتى ينكر فضل النهر الأول.. الذي ما زال يجري في تربتنا، ويسقيها على مدى خمسة عشر قرناً.

ومهما يكن من أمر، فإنها تعمل للشكلين معاً، تعمل للشعر الحر، وتعمل لشعر الشطرين، والمستقبل في رأيها.. لهما معاً.. لا لواحد منهما دون الآخر. وكم تتمنى نازك الملائكة.. لو تجد أنصاراً يسندون موقفها هذا من الشعر، وقد لا يكون ذلك سهلاً ميسوراً، فإن أنصار الشطرين ما زالوا يهزأون بالشعر الحر.. ويرفضونه رفضاً قاطعاً، كما أن دعاة الشعر الحر.. يزدرون الشعر الخليلي، ويصمونه باسم الشعر التقليدي ويحثون التراب في وجه من ينظمه، ويزداد أملها في أن تمزج فكرة حب الشكلين معاً.. في المستقبل، وهو أمل قائم لا ينقطع ولسوف تبقى نازك الملائكة.. تحلم، وتحلم بأن شاعر المستقبل العربي.. سينظم أعذب الشعر.. بالأشكال الخليلية، والأوزان الحرة معاً، دون أن يتعصب لهذه أو تلك لأن كليهما تراث له وعدة، وعندما سيدرس تاريخ أيامنا هذه.. سيقف مندهشاً من المعارك الحامية حول هذا الموضوع، ولا يعتبرها إلاّ صورة لمرحلة مضت.

«ضوء القمر»:

أقبل الليل.. عذب النسيم.. ندي الصور..

ومشى في الوجود.. نعاس ونام الزهر..

سكر الضوء بالعطر.. غلغل فيه حذر..

وأطل على عالم الصمت.. ضوء القمر..

لين الضوء عذباً.. كذكرى ليالي المطر..!

* * *

قلت.. يا قمري.. أنت حلو الضياء.. هنا..

تسكب النوم والحلم.. تمطرنا سوسنا..!
شفتاك تلامس تحت الدجى.. شعرنا..!
ويداك ندى.. وأغان.. وكأسا.. سنا..!
وهنا أنت تضحك.. ملء.. الدياجي.. لنا..

* * *

قلت يا قمري.. وهناك هناك.. هناك..!
في فلسطين.. كيف شعاعك.. كيف تراك؟!..
أترى عطر الشهد.. والأغنيات.. يداك؟!..
تمنح الظالمين الضياء.. وتعطي نداك..
قلت يا قمري.. أوَتشرق في تل أبيب..؟
حيث يطعن قرآننا.. ويداس الصليب..
أتصب ضياءك فوق ثرانا السليب..
وترى دماً يتفجر.. يسقي الكثيب؟!..
عربي المسيل يئن.. وما من مجيب..

* * *

وذهلت عن اللانهاية.. غاب القمر..
عن عيوني.. رأيت غداً.. في لظى وشرر..
العروبة تزحف فيه إلى المنتظر..
وتحرر أرض نزار.. ودار مضر..
عند ذاك أعود أغني.. لضوء القمر..

* * *

ـ وعندما صدر كتاب «نازك الملائكة» «قضايا الشعر المعاصر» عام ١٩٦٢م في طبعته الأولى، بدأت شائعة غريبة تجوس الجو الأدبي من العالم العربي، وراح عشرات الكتّاب.. يرددونها.. دونما تثبت، يقولون جميعاً: إن «نازك الملائكة».. قد تراجعت عن دعوتها للشعر الحر.. ولم تعد من أنصاره، وقد تردد صدى هذه الشائعة في كثير من المجلات العربية من المغرب إلى دمشق، ومن الجزائر إلى بغداد، ومن القاهرة إلى الرياض، وفي كل بلد عربي.

أما من يطّلع على هذا الكتاب.. يجد أنه قد أدرج به فصلاً كاملاً.. مهمّاً كل الأهمية، عنوانه: «الجذور الاجتماعية لحركة الشعر الحر»، وفيه ذكرت نواقص شعر الشطرين التي دفعتها إلى الخروج عليه، والدعوة إلى شعر جديد يخلو من تلك النواقص.

وحين تلقّت الشاعرة.. «نازك الملائكة».. بطاقة تهنئة بالعيد عليها صورة لمسجد قبة الصخرة بالقدس، انطلقت أحاسيسها الشاعرة بالمناجاة في قصيدتها «للصلاة والثورة»:

يا قبة الصخرة..

يا ورد يا ابتهال.. يا حضرة..

ويا هدى تسبيحة علوية البزة..

يا صلوات عذبة الأصداء..

جاشت فيها الأبهاء..

يا حرقة المجهول يا تطلع الإنسان للسماء..

يا وله الركوع.. يا طهره..

يا وردة الخشوع.. يا نداه.. يا عطره..

يا مسجداً أسكت تسبيحاته صهيون..

من أجل حلم وقح مجنون..

كبِّل في أرجائه الصلاة والخضرة..

ولوِّث التاريخ والفكرة..

يا قبة الصخرة يا ضماد يا زهرة..

يا سهر الجراح في ارتعاشة الشفاه..

يا حرقة الدعاء يا تنهُّد الصلاة..

هل تنبض الحياة..

في هذه الأذرع والجباه؟!..

هل تدفق العطور والألوان والمياه؟!..

ينبجس النبع من الصخرة..

وينبت الفداء ورداً ساخن الحمرة..

نسقيه من تمتمة الدعاء..

من حمرة الدماء..

نطعمه سنابل الفداء..

نختصر الزمان في تسبيحة ثرة..

يصرخ فيها عطش الثورة..

يا قبة الصخرة..

يا صمت يا ضياع يا حيرة..

حتى نرى أبوابك القدسية البرة..

وتنتهي إليك عبر الشعب الخطرة..

جرارنا خاوية متى ترى تمتلىء الجرار؟!..

حقوقنا قد يبست فهل تر ستسقط الأمطار؟!..

وعند بواباتنا ننتظر الأقدار..

متى نصلي؟!..

إنما صلاتنا انفجار..

صلاتنا ستطلع النهار..

تُسلِّح العُزَّل تعلي راية الثوار..

صلاتنا تفجِّر الأنهار..

وتبعث الغناء والليمون والأحرار..

تعيدنا للوطن المسروق تمحو العار..

يا قبة الصخرة..

يا رمز يا تاريخ يا فكرة..

غداً.. غداً.. يختلج اسم الله في القدس.. وفي الخليل..

ينتفض العدل المدمى صارخاً..

يستيقظ القتيل..

تنبت من دمائه زهرة..

في عطرها سمّ وتخفي كأسها جمرة..

تسكب في أشداق إسرائيل..

مذاق هول زاحف من الفرات العذب..

حتى النيل..

عندئذ ينطفىء الغليل..

وترتوي جدائل الزيتون والنخيل..

وتنعكس الثارات بعد السهر الطويل..

كأنما خيامنا ـ عُدْنَ من الرحيل..

غداً غداً ينفجر البركان..

ويبدأ الطوفان..

ينتفض الشهيد في الأكفان..

ويكسر القضبان..

يقاتل الآسر والسجَّان..

ينتصر الإنسان..

يرتفع الأذان..

حرّاً عبيري الصدى من قبة الصخرة..

يرطب الهامة القفرة..

ويعلن الصلاة والجهاد والثورة..

في القدس في الجولان في سيناء..

في المدن العذراء..

في الأرض في السماء..

سيستحيل الماء والتراب والهواء..

مَدافعاً فاغرة وثورة حمراء..

فيسقط الطغيان..

ويزهق الباطل والبهتان..

ويمكرون مكرهم ويمكر الرحمن..

* * *

- وفي دراسة شاملة نقدية تتناول أهم القضايا والهموم التي تشغل الشعر كالحنين إلى الوطن، والحاجة للحب، وتأمُّل الكون، جاءت هذه الدراسة النقدية عن الشاعرة «نازك الملائكة» في كتاب «الشعر وهموم الإنسان المعاصر».. من تأليف الدكتورة إخلاص فخري عمارة، وفيها تحلل كتابات الشاعرة «نازك الملائكة»، وتختار قصيدة «طريق العودة» من ديوان «نازك».. «قرارة الموجة» التي نظمتها الشاعرة في ١٥ مارس ١٩٤٩م.. ومنها:

بعض التأملات في القصيدة:

- في الموسيقى، وفي وحدتها الموسيقية، وقد اتخذت «نازك الملائكة» من (فعولن) ركيزة موسيقية.

- أما اللغة والأسلوب، فإن لغة القصيدة تبدو بسيطة عادية، لا تنفرد بسمات خاصة.

وتؤكد الباحثة.. أن القصيدة قد حفلت بجمل رقيقة معبِّرة، وبأساليب مفعمة بالجمال.. والشاعرية، وتصل في البلاغة والبيان.. مدى بعيداً، وتريد من القارىء أن يتأمل هذه السطور من القصيدة:

«يمد لنا كل شيء.. نراه يداً..

يكاد يعانقنا.. ويصب علينا غداً..

دقائقه نسجتها المنى..

وكنا نسميه دون ارتياب طريق الأمل..

فما لشذاه أقل؟..

وندرك كيف تغير؟ حتى التراب..

تغير حتى الطريق..

أليس هناك مكان وراء الوجود..

نظل إليه نسير؟!

وقد أوضحت الباحثة أن الشاعرة قد استعانت في هذه القصيدة بثلاث من وسائل الفن تتفق مع طبيعة النص، وما يصوره من تجربة شعورية وهي:

ـ التكرار في اللفظ ـ والعبارة ـ والحالة النفسية.

ـ إن القصيدة تبدأ عند قرار الشاعرة بالعودة من نفس الطريق، وكانت الأحداث حسب تسلسلها.. هي قطع الطريق أولاً.. من الذهاب.. ثم التوقف.. لحظات عند نهاية الطريق، أو القمة.. كما أسمتها، والعودة مرة أخرى.. في نفس الطريق.

والقصيدة هي:

«طريق العودة»

وتعتبر من التأملات في الكون وفلسفة الحياة..

ـ نعود إذن في الطريق الطويل..

تواجهنا الأوجه الجامدة..

يواجهنا كل شيء رأيناه منذ قليل..

كما كان في رقدة باردة..

نعود إذن لا ضياء ينير..

لأعيننا الخامدة..

نسير ونسحب أشلاء حلم صغير..

دفنّاه بعد شباب قصير..

لماذا نعود؟!..

أليس هناك مكان وراء الوجود..

نظل إليه نسير..

ولا نستطيع الوصول؟!..

مكان بعيد يقود إليه طريق طويل..

يظل يسير.. يسير..

ولا ينتهي ليس منه قفول..

هناك لا يتكرر مشهد هذا الجدار..

ولا شكل هذا الرواق..

ولا يرسل النهر في ملل نغمة لا تطاق..

نصيح لها في احتقار..

لأن الطريق طريق الرجوع..

لأننا بلغنا نهاية درب الرواح..

وأصبح لا بد من أن نذوق الجراح..

ونحن نسير ونقطع درب الرجوع..

ونزرعه بالدموع!..

- وعدنا نسير..

نجر أحاسيسنا الراكدة..

وتصدمنا الأوجه الجامدة..

نسير ونسير..

نحدق في أي شيء نراه..

بهذا السياج المهدم أو بسواه..

نحدق لا رغبة في النظر..

ولكن لأن لنا أعيناً..

نحدق لا شوق يغري بنا..

ولكن لأننا سئمنا السكون المخيف..

ووقع خطانا الرتيبات فوق الرصيف..

سئمنا فأين المفر؟..

* * *

والشاعرة «نازك الملائكة» ولدت في العراق ـ بغداد ـ في عام ١٩٢٦م. وبعد دراستها الثانوية.. التحقت بدار المعلمين العالية، فحصلت على ليسانس في اللغة العربية وآدابها، ثم درست الأدب المقارن في جامعة وسكنسن بالولايات المتحدة.. فنالت درجة الماجستير في عام ١٩٥٦م.

وقد درست «نازك الملائكة» الموسيقى والأنغام لنحو ستة أعوام في مركز الفنون، فصقلت حسها الموسيقي، وموهبتها الشعرية، بالدراسة العلمية.

وأسهمت الشاعرة في المجال النقدي.. بعدد من الكتب الأدبية الهامة، كان في مقدمتها.. «قضايا الشعر المعاصر» الذي ناقشت فيه قضية الشعر الحر.

وتراجعت عنه.. مبيِّنة نواحي النقص فيه حسبما تراها، ومن كتبها النقدية كذلك.. كتاب شعر ـ علي محمود طه ـ الذي يعد دراسة فنية قيِّمة لإنتاج هذا الشاعر المصري الكبير.

وقد ابتدأت «نازك» بديوان (شظايا ورماد) الذي دافعت في مقدمته عن شعر التفعيلة، ولكنها عادت في ديوانها (للصلاة والثورة) تعلن فيه.. أن شعر التفعيلة أو.. الشعر الحر، لا يمكن أن يشغل كل الساحة الشعرية، ويزيح الشعر العروضي الخليلي عن عرشه الخالد.

ـ وتقول الباحثة: إن الشاعرة محقَّة فيما ذهبت إليه، فإن الشعر الموروث لا يمكن أن تزول دولته تماماً.. بدليل بقائه رغم التنويعات

العديدة، ورغم ظهور شعر الموشحات.

ـ وتعد «نازك الملائكة» من أقطاب المدرسة الرومانسية العربية في جمال إبداعها الشعري، وتوضح الدكتورة «إخلاص» معنى الرومانسية.. بقولها:

«يجب أن نضع في الاعتبار.. أن الرومانسية حالة نفسية.. أكثر منها مذهباً فنياً، وهي تتدفق من إبداع الشاعر.. نغماً حزيناً وفكراً متشائماً، نتيجة المرارة والخيبة وفي أعقاب المحن والأزمات.

ـ وقد بدأت «نازك الملائكة» حياتها العملية مدرِّسة بالكلية التي درست فيها ـ دار المعلمين العالية ببغداد ـ ثم عملت فترة بالتدريس.. في جامعة البصرة، وانتقلت بعدها إلى كلية الآداب بجامعة الكويت.

* * *